

أطراف من تاريخ الملابس عند المسلمين

للمعروف المستشرق روزي (*)

للأديب محمد طه الحاجري

—•••••—

كاد فن صناعة الملابس أن يكون مجهولاً في العهود الإسلامية الأولى، يوم كان العرب كلهم بدواً إلا قليلاً، وكانت المدن صغيرة ضئيلة الخطر، فكانت الأردية البسيطة المفردة كافية في الوقاية من البرد والحرق. وما كانوا يحسبون أن من الممكن أن تصنع الملابس على أسلوب رشيقي، بل كان ناسج الثوب هو وحده الذي يقوم بالأمر. ولكن العرب حينما فتحوا وشيكا فصار كبيراً من آسيا وأفريقية وأوروبا، انصلموا بالشعوب التي غلبوها، وكانت قد وصلت إلى درجة عالية من الحضارة، فلم يلبثوا أن تركوا شيئاً فشيئاً حياة البادية، وأخذوا يستقرون في المدن (١). وكذلك أدركوا أن في مكنهم أن يصنعوا لأنفسهم ثياباً أرشق مما كانوا يلبسون، فأخذوا كثيراً من زى الشعوب التي غلبوها. ولما كانت مظاهر الترف قد تقدمت عند الفرس تقدماً عظيماً، فقد أحس بلاط بغداد إحساساً مطرداً بنفوذ جيرانه ورعاياه، كما أن تقدم الحضارة والتجارة أنشأ مصانع من كل نوع. وما أسرع ما ضمت بغداد عدداً عظيماً منها، كان مقدار ما فيها من الثياب الحريرية الفاخرة، والأقمشة الصبغة بالذهب والفضة وما إليها، يتضاعف مضاعفة مستمرة.

أما في المغرب فكان الأمر على العكس من ذلك، إذ اختلط العرب بالمرأ كشيين والبرابرة، وهم شعوب جافية، دون فاتهم في الحضارة، فكانت مظاهر الترف مجهولة لديهم، فأخذ العرب منهم إلى حد ما زيمهم البسيط الفليظ.

أما في الأندلس فقد استخلص العرب لأنفسهم جزءاً كبيراً

(*) ترجمة الفصل الذي كتبه مقدمة لكتاب التيم : «قاموس نفصلي بأسماء الملابس عند العرب»

(١) راجع مقدمة ابن خلدون في الفصل الذي عقده عن صناعة الحياكة والحياطة

من زى الفرسان السحيين، ولا سيما في العهد الأخير من عهود ملكهم. ويصرح ابن سعيد بأن أقبية عرب الأندلس كانت تشبه أقبية السحيين. ويقول ابن الخطيب المؤرخ، وهو يتحدث عن محمد بن سعد بن محمد بن أحمد بن مردنيش التوفي في النصف الثاني من القرن السادس الهجري: «وآثر زى النصارى من السلاح والملابس واللجم والسروج»

أما في مصر والشام فقد عانى الزى تغيرات عظيمة بسبب غارة الأتراك

وقد أحدث امتزاج العرب بالأجانب أن وجد دائماً اختلاف كبير بين أزياء الشعوب المختلفة التي تكون الإمبراطورية العربية الشاسعة، حتى أنه ليستطاع لأول وهلة أن يميز عربي الشرق من عربي الغرب. ويقول ابن إياس، وهو يتحدث عن المؤرخ الشهير ابن خلدون: «واستقر لما تولى القضاء وهو زى المغاربة فقد ذلك من النوادر» ويقول النويري وهو يروى وفاة الملك القاهر بهاء الدين أبي محمد عبد الملك بن الملك المعظم: «وكان يلبس ملابس العرب ويترأ بزيمهم ويركب كركبهم ويتخلق بأخلاقهم في كثير من أفعاله» وحتى الذين يسكنون المدن القريب بعضها من بعض كانوا يختلفون في أزيائهم، فقد كتب أحد المغاربة — وسماه مارمول Francisco Nunez Muley — يقول، حينما حرم فيليب الثاني على مغاربة الأندلس أن يلبسوا زيمهم الوطني: «إن زى ناسنا ليس مغريباً بل هو زى مدنى كما في قشتالة، وإن الشعوب الإسلامية في البلاد الأخرى تختلف في أغطية الرأس وفي الثياب والأحذية. ومنذا الذي ينكر أن زى مرا كشيات أفريقية والتركيات يختلف عما تلبسه نساؤنا في غرناطة؟ وكذلك تختلف أزياء الرجال، فليس زى فاس كزى تلمسان، وليس زى تونس كزى مرا كس، وكذلك الأمر في تركيا والممالك الأخرى» وهناك فوق ذلك اختلاف كبير في زى الطبقات المختلفة التي تتكون منها الجماعة الإسلامية حتى ليستطاع تمييز الرجل الخاص من العامى والجندي من شكل الهامة على الأخضر، وكذلك كانوا يعرفون بها للنصب الذي يشغله من بقوته

يبد أنه يجب ألا يؤخذ هذا القول بوجه عام إلا عند أهل المدن، أما البدو فقد احتفظوا تقريباً بالزى القديم، ولاحظوا تعاليم الدين أكثر من الحضريين.

كذلك . أما الشيعة فعلى العكس من ذلك يحرمون السواد ، إذ قرأ في رحلات شردان Vayages de chardin ما يأتي :
« ولا يلبس الأسود في الشرق ولا سياً في فارس لأنه لون مشثوم بفيض لا يمكن النظر إليه ، ويسمونه لون الشيطان » أما اللونان الأحمر والأسفر فكروهان من غير أن نعرف سبب كراهيتهما ؛ غير أنى أفرض أن الأسفر مكروه لأنه لون البغض ، والأحمر لأنه لون الدم . ومع هذا فكثيراً ما يلبس السلجون ثياباً حمراء وصفراء . ويقول ابن جنى والواحدى : إن الثنيات يلبس عادة ملابس حمراء . أما الملابس الخضراء فلا يلبسها إلا الأشراف
سلالة الرسول (ص)

ويظهر أنه ليس بين الحنفية والمالكية والشافعية كبير خلاف في فصل الملابس ، ولكن يظهر أن مذهب ابن حنبل ، وهو أكثر المذاهب تشدداً ، قد أبعد في التشدد في هذه المسألة .
وها هو ذا ما جاء في تاريخ مصر للنويرى (في حوادث سنة ٧١٦) :
« وفي هذه السنة فوض قضاء قضاة الحنابلة بدمشق إلى شمس الدين أبى عبد الله محمد ، ووصل إليه بتقليد القضاء من الأبواب السلطانية في يوم السبت ثامن صفر . وقرى بجامع دمشق بحضور القضاة والأعيان ، وخرج القاضي شمس الدين المذكور من الجامع ماشياً إلى دار السعادة ، فسلم على نائب السلطنة ، ثم نزع الخلعة السلطانية وتوجه إلى جبل الصالحية وجلس للحكم في سابع عشر صفر ، وما غير هيئته ولا عادة في مشيه وحمل حاجته ، ومجلس للحكم على منتر غير مبسوط ، بل يضعه في يده ومجلس عليه ، ويكتب في محبرة زجاج ، ومحمل نمله بيده فيضمه على مكان ؛ وإذا قام من مجلس الحكم حله أيضاً حتى يصل إلى آخر الأيوان فيلقيه ويلبسه . هكذا أخبرني من أثق بأخباره ؛ واستمر على ذلك ، وهذه عادة السلف »

ولست أدري إن كان كل الحنابلة على هذا التواضع الشديد أم هم القضاة وحدهم ؟ ويؤسفني أن ليس لدى من ققه الحنابلة ما أراجع في هذه المسألة ، بل يظهر أن هذا الفقه نادر جداً في أوروبا ولكي نكون لأنفسنا فكرة عن التطورات التي طرأت على زى العرب تقارن ثوب محمد صلى الله عليه وسلم بثوب رجل من الطبقة المتوسطة من أهل القاهرة في القرن السادس عشر بعد غارة الأتراك

ولقد حدث محمد (ص) أحاديث عديدة لمنع مظاهر الترف في الثياب من أن تتغلغل في أمته ، وقد استخلص فقهاء الاسلام من هذه الأحاديث نظاماً بالبادىء والقوانين الخاصة بالزى ، وسنفرسها هنا وفقاً لما جاءت به كتب الفقه الحنفى والمالكي إن وظيفة الملابس ، على ما يقول كتاب ملتقى الأبحر ، هي ستر الصورة والوقاية من الحر والبرد ؛ والأفضل أن تكون من القطن أو الكتان غير مغالى فيها ولا شديدة الزانة . وليس أخذ الزينة حراماً متى كان لا يظهر نعم الله التي تفضل بها علينا . أما حين تصدر عن الكبرياء فإنه ممنوع . وكثيراً ما أوصى عطاء العرب والفرس بالتواضع في هيئة اللباس ، ويقول النويرى ، مثلاً ، وهو يمدح صلاح الدين :

« وكان لا يلبس إلا ما يحل كالكتان والقطن والصوف »
ويقول في موضع آخر بمناسبة موت الأمير جمال الدين ايدغدى العزيز : « وكان مقتصداً على ملبسه يلبس الثياب القطن من الهندى والبعلبكي وغيره مما يباح ولا يكره لبه » (راجع : Anthologia Cersicp, pag. 56, 58).

والحرير مباح للنساء محرم على الرجال إلا أن يتخذوا منه حاشية لثيابهم لا يتجاوز عرضها أربعة أصابع فذلك جائز لهم ؛ ويرى البعض ألا تتجاوز إصبعين ؛ أما المالكية فيرون ألا يبلغ عرضها عرض إصبع واحد . وقد نهى النبي (ص) نهياً مشدداً عن الملابس الحريرية فقال : « من لبس الحرير في الدنيا فلن يلبسه في الآخرة » وقال : « إنما يلبس الحرير في الدنيا من لا خلاق له في الآخرة » ويميز الحنفية للرجال أن يلبسوا ثياباً سداها من الحرير ولحفا من غيره ، وأما عكس هذا ، أى أن تكون اللحمة من الحرير والسدى من غيره فلا يحل إلا في الحرب . ولا يتفق المالكية فيما بينهم في جواز لبس القماش المسمى بالخز ، وهو ماسداه حرير ولحمته صوف ، ولكن الأكثرين على منعه

والأكثر استحباباً من الألوان الأبيض والأسود ؛ أما الأبيض فلقول الرسول (ص) : « إن الله يحب الثياب البيض وإنه خلق الجنة يضاء »

ويقول مؤرخ إفريقى وهو يمدح عبدالرحمن الأول أول ملوك الأندلس : « كان يلبس البياض ويتم به » ، وأما الأسود فلأن محمداً (ص) كان يلبس يوم فتح مكة جبة سوداء وعمامة سوداء

بالاجلال ، وتنال الخطوة في القصر والقربى لدى العطاء . أما في مصر فهناك ما جاء من ذلك في كتاب « وصف مصر » Description de L' Egypte : كلما كدس الناس من الثياب على أجسامهم ضاعفوا الاحترام والتقدير الذي ينفونه لأنفسهم ؛ فليس يبدو غريباً إذن أن يعنى الشرقيون بأن تكون ثيابهم نظيفة طيبة الرائحة ، وقد جاء في الأغاني عبارة : « ملأه مطيبة » كما نقرأ في تاريخ مصر للتوحيدي أنه وجد في ذخائر أحد العطاء لعبة من العنبر على قدر جسده ، برسم ثيابه ، توضع ثيابه عليها لتكتسب رائحتها . وورد في « ألف ليلة وليلة » هذا البيت من الشعر :
وتيس بين مزعفر ومصفر ومعتبر وممسك ومصنل
كما وردت فيه أيضاً هذه الفقرة : « لبست تلك البذلة الفاخرة وكانت مطيبة » وفي موضع آخر منه : « فعمدت تبخره فطارت شرارة فأحرقت طرفه » . ويقول بوركهاردت Burekhardt عن وهابي نجد أنهم يعنون بتطيب الكوفية بأنواع من الطيوب ونخص الأردن بالتطيب ، ففي قصيدة للمتنبي يقول :

أنت زائر ما خامر الطيب ثوبها وكالمك من أردانها يتضوع
أما عادة منح الثياب للدلالة على التقدير فمادة شرقية قديمة ؛ ومع ذلك يقول المقرئ : إن أول من استعملها هو هرون الرشيد حينما خلع على نديمه جعفر بن يحيى البرمكي . ويسمى ثوب الشرف هذا خلعة ، ثم سمي بعد هذا تشريقاً . ثم لما تقلعت هذه المادة أصبحت من القوة بحيث كان الأمير يخلع الرداء الذي يرتديه ، فيلبسه الشخص الذي هو موضع تكريمه أو أجازته . ولكن يظهر أن الأمراء لم يكونوا بعد ذلك يهبون من الثياب إلا بما هو مودع في خزائن ثيابهم ، أو ما كان جديداً كل الجدة ؛ ولكنه كان من دلائل الشرف دائماً أن يلبس الرجل ثياباً كان الأمير يلبسها من قبل ؛ ولم يفت المؤرخين أن يسيروا إلى ذلك ، فما يحكي التوحيدي هذه العبارة : « أنتم على الأمير سيف الدين بشر بوش كان قد لبسه » أما حين يراد معرفة أنواع الثياب التي تتألف منها الخلعة أو التشريف ، فقد أشرقنا على مسألة شديدة الصعوبة ؛ وإن يكن بخيل إلى أن الأمر كان يرجع ، في حكم بعض الأسر ، إلى اختيار الأمير المطلق ؛ ومع هذا ، فإذا كان فيرس Veijers يحسب أن الخلعة كانت تتكون غالباً ، أو مطلقاً ، من القباء وحده ، فإنني أرى لزماً على أن أدل هنا على أن هذا رأى خاطئ الأساس . وإذا

كان الرسول (صلى الله عليه وسلم) يلبس قيصاً من القطن الأبيض تصل أكامه إلى المعصم ، وسروالاً من القماش ؛ وما كان فوق القميص والسروال — فيما يظهر — إلا ثوب واحد هو الجبة ؛ وهي ثوب طويل من الصوف ، وحواشيه من الحرير ، مفتوح من أمام ، ضيق الأكام ؛ أو القباء ، وهو ثوب طويل مهيأ بالأزرار من أمام . وكان يلبس في بعض الحالات — بدلاً من هذه الثياب — كساء من القماش الغليظ ، وهو عادة قطعة كبيرة من الصوف السميك ومادية اللون مخططة ، يلف بها الجسم ، وهي (البردة) . وكان محمد (صلى الله عليه وسلم) يلبس العمامة البيضاء أو السوداء ويرخي طرفاً منها على ظهره . وأما حذاءه فكان نعلاناً مصنوعاً من جلد الإبل ، مربوطة بسيرين يمر أحدهما بوسط القدم والآخر بين الإبهام وما يليه

فنحن نرى أن زى الرسول (صلى الله عليه وسلم) كان في غاية البساطة ، ولا يزال هو زى أهل الصحراء في أيامنا هذه . فالبدو لا يلبسون — مثل الرسول — إلا قيصاً من القطن ، وثوباً طويلاً ، وقد يستعيضون عنه بكساء من الصوف

أما زى الرجل القاهري في القرن السادس عشر ، فيتألف من عدد عظيم من الملابس — فلا ترى مجال ما تلك البساطة التي كانت تميز زى الرسول ، والتي لا تزال ترى في زى البدو — فكان يلبس فوق القميص والسراويل قفطاناً من الحرير في ألوان مختلفة قد خالط بعضها بعضاً ، ولهذا الثوب أكام فضفاضة ؛ ثم يلبس فوق القفطان حزاماً من الحرير أو الور أو الصوف . ثم جبة طويلة مفتوحة من الأمام ، ذات كمين قصيرين لا يصلان إلى المعصم حتى يظهر طرفا كمي القفطان وقد تجاوز الأصابع ؛ وهذا الثوب أقصر قليلاً من الأمام عنه من خلف ، وهو مصنوع من القماش الأحمر أو الأزرق أو الرمادي ؛ ثم يلبس فوق الجبة ثوب فضفاض يصنع عادة من الور ، ويزين أحياناً بالفراء ، وهو الفراجية . أما غطاء الرأس فيتكون من طاقية صغيرة من القطن وطربوش أحمر وقطعة طويلة من الشاش (المولسلي) تستدير حول الرأس . وأما الحذاء فمن الجلد المراكشي الأحمر

وجمال الثياب وعددها يخضع على لابسها في الشرق العظيمة ويمت على احترامه ويقول المثل الفارسي « قربت بلباس » ويفسره تافرنيه Tavernier بقوله : بمقدار ما تتجمل في ثيابك ، تقابل

يشرف أحداً من أصحابه خلع عليه من ملابسه ، ونحن نسلك طريقه ؛ وقد أرسل إليك من ملابسه ، وأمر أن تلبسه في مجلسك هذا وأنت تحكم بين الناس ؛ وكان الملك العظيم أكثر ما يلبس قباءً أبيض وكلوة صفراء . وفتح الرسول البقعة ، فلما نظر القاضي إلى ما فيها وجم . قال الشيخ شهاب الدين أبو شامة فأخبرني الرسول الذي أحضر هذه الخلعة والرسالة بذلك . قال وكان السلطان أمرني أن ألبسه إياها بيدي إن امتنع أو توقف ، فأشرت عليه بلبسها وأعدت الرسالة عليه ، فأخذ القباء ووضعته على كتفه ، ووضع عمامته على الأرض ولبس الكلوة الصفراء على رأسه ، ثم قام ودخل بيته ، ومرض إثر هذه الحادثة وورى كيداً ومات ؛ ويقال إن ذلك كان في يوم الأربعاء السابع والعشرين من شهر ربيع الأول سنة تسع عشرة وسبعمائة »

ويذكر بعض المؤرخين الأسبان أن ملك قشتالة الدون اريك Eon Enrique مات مسموماً لأن ملك غرناطة محمداً أهدى إليه حذاءً غمراً في السم وكانت الثياب السوداء تلبس قديماً للدلالة على الحداد ، سواء في لبسها لذلك الرجال والنساء . ومن المعلوم أن زى العباسيين الأسود إنما انتحل حداداً لموت الامام إبراهيم بن محمد وكذلك جاءت هذه العبرة في تاريخ مصر للنوري : « شق القاهرة وهو لابس السوداء ، وأعلامه كذلك ، حزناً على الظاهر »

ولكن الرجال في الأزمنة المتأخرة صاروا لا يلبسون ثياب الحداد ، إذ كانت تبدو كأنها دليل على عدم الصبر على ما قدر الله أما النساء فلا يزالون يلبسونها في الشرق ، ولكن عند موت الزوج أو القريب الأدنى ، ولا يلبسونها في موت من تقدم به العمر . وقد جاء في معجم الأعلام الذي وضعه ابن الخطيب أن الشاعر الشهير ووزير صاحب غرناطة ، لبست الحداد حين بلغها أن حبيبها قد قتل ، ولكن هذا من غير شك شذوذاً من العادة العامة ويكون الحداد بأن تصبغ المرأة بالنيلة قيصها وقناعها الذي تغطي به رأسها وتستر به وجهها ومتديلاً صبغة زرقاء قائمة أو قريبة من السواد . وتلبس النساء ثياب الحداد فترة الأيام السبعة أو الخمسة عشر أو الأربعين في بعض الأحيان أما في الأندلس ، أثناء حكم الخلفاء الأمويين فكانت ثياب

كان صحيحاً أن ثوب الشرف كان يتكون ، في حكم حسن باشا لليمن ، من القباء ، فإن الأمر لم يكن كذلك في بغداد ومصر مثلاً ، فقد كانت الخلعة أو التشريف تتكون من ثياب مختلفة غير ذلك . فالنوري يذكر لنا أن الخلعة التي وهبها خليفة بغداد للملك الناصر داود كانت تتكون من قباء حريري وشربوش ، كما يحكي في موضع آخر أن الخلعة التي أعطاه الخليفة العباسي المعتصم بالله كانت تتكون من عمامة سوداء وفراجية موشاة بالذهب . ونقرأ فيما يمد ذلك أن ثوب الشرف الذي منحه الخليفة كان يتألف من عمامة من الحرير الأسود المطرز بالذهب ودراعة . أما الخلعة التي كانت تعطى للوزير في مصر فكانت تتألف من جبة وفراجية وطرحة . وكذلك كان التشريف يتكون من ثياب مختلفة . وأخيراً ندلنا عبارة أخرى للنوري على أن ثياب الشرف كانت تختلف في القماش الذي صنعت منه ، والقطع التي تتألف منها حسب مرتبة من تقدم إليه ، أو حسب الخدمات التي أداها للأمير

وكان الأمير في كثير من الأحوال ، يقدم إلى جانب الخلعة ختجراً وحصاناً وأشياء أخرى . كما أننا كثيراً ما نقرأ عن خلعة كاملة وتشريف كامل

وكانت ثياب الشرف التي يهبها الخلفاء العباسيون تكاد تكون دائماً سوداء

ولم تكن الغاية من الثياب منحصرة لسوء الحظ ، في الزينة بل كان شيطان البقص والانتقام يستعملها في انتزاع الحياة بطريقة دينية . ومن المعروف عند الغربيين أن الثياب كانت تستعمل في القرون الوسطى لهذه الغاية . ويكفي قليل من الأمثلة المأخوذة من التاريخ الإسلامي لإثبات أن هذا الأسلوب من الانتقام الذي لم يكن مجهولاً في الشرق . والنوري يقص علينا أن السلطان الأيوبي ، الملك العظيم ، أصغر سخطاً شديداً على قاضي القضاة لأنه أقنع أخت صلاح الدين والملك العادل ست الشام بنت أيوب أن توقف أموالها على بعض المؤسسات الدينية ، فغيت حماسة القاضي الدينية آماله . ولقد حاول الأمير عبثاً أن يجد حجة يستطيع أن ينتقم بها من القاضي ، ثم لما وجد أخيراً هذه التهمة أرسل إليه وهو في مجلس حكمه ، وحوله جماعة كثيرة من المدبول والتحاكين ، فلما جاءه الرسول قال له : السلطان يسلم عليك ويقول لك : للخلقة ، سلم الله عليه ، إذا أراد أن